جانين ربيز تتذكرها "صادر للفن والثقافة" وأصدقاء المغذيّة بمشاعرها المحرّضة بعواطفها المثوّرة بأفكارها

كيفما حفرت في ذاكرة المدينة تجد علامة تدعى جانين ربيز.

انما طبعا، ولحسن الحظ، ليست كل المدينة. هي جزءها الصلب، ركيزة من التي يقوم عليها البناء والا اصابه خلل، كنقطة انطلاق يوم كان المكان يعج بالمواهب وقلة تستجيب. ومثل خيمة لراحة المغامرين الذين كانوا لا يزالون من المشاغبين. وجدار للفنانين ودارة للمتحاورين ومنصة للطامحين الى فوق.

ولولاها، ربما، ما كانت المدينة لتصل تماما الى حيث اختمرت كمختبر طليعي للضمير العربي الحديث. هكذا وصفتها يومئذ، وهي تصدرت كمدينة، كالمدينة، بعضها التجريبي حقول الشعر والرواية والمسرح والفنون التشكيلية، الى احتوائها في ليونة حرة معظم الرحالة العرب الذين لتجاهل مدنهم خصوصيات مواهبهم، نزلوا من طرق عدة ولكل مسيرته في مدينة كأنما حضرت من اهلها، ومن هؤلاء جانين ربيز، لاستقبالهم كأنما هي مدينتهم.

وجانين ربيز دارة آداب وفنون بالسليقة المصقولة بامتياز لتغمر وتخصب وتدفع الى المدينة كما المزارع بالقمح الى تربة ناضجة. وفي المسرح كنموذج، من منير ابو دبس المقتصد والمتراكم ابيض على اسود والتعبيري خبرة واختبارا، الى فؤاد نعيم وهو آخر ضيوف "دار الفن والادب" مؤسستها، والذي باخراجه "البكرة"، تأليف تريز عواد، تمثيل نضال الاشقر، أطل فجأة على المتفرجين كرمز جديد لمدينة تولد دوما من رمادها.

جانين ربيز، كأنما هي المدينة.

وجانين ربيز كأنها بيروت. على صورة مدينة كانت يومئذ لا ترى مستحيلا . لا ترى الى نفسها كعاصمة ثقافية لعرب قادمين اليها، الى مستقبل بقامة القرن العشرينم، وكنا يومئذ جماعة، وان قل عددها، تعتبر ان بيروت هي العرب الطليعة فيما البقية ضحية العسكر، والى ظلامة، وما نحن عليه اليوم كعرب، يؤكد عمليا ظنونا شيطانية فينا. ويومئذ كان للمدينة وجه ثوري، والفكر ايديولوجيات، والكلام صدام، والرأي معارض دوما. كان للمدينة عصب يشعر بان الحداثة على خطوة، في اليد او تكاد.

لكأن جانين ربيز مفرد في صيغة الجمع. ولنبضها نقفة انثوية بامتياز. كأنها ترى بحواسها، وتستوعب بغرائزها، وتغذي بمشاعرها، وتحرض بعواطفها، وتثور بافكارها، والمدينة على ايقاع تتحكم هي في جزء منه ليبدو دائرا في فلكها من غير اي تبعية مهما صغرت، او حتى مبايعة مهما بدت. اذ كانت دوما تعطي لا لتأخذ انما لتحرر، ولعل كثرا رأوا فيها امرأة عنيدة في اختياراتها، متسلطة في مواقفها، جريئة في اقوالها، وقحة في مفرداتها، اي محترفة صدام وسيدة نفسها.

ومع الانسان بتطرف. ومع المثقف بحق. ومع الفنان بعدل. وحاضرة دوما جانين ربيز للدخول طرفا في المعارك الكبرى الدائرة يومئذ في مدينة لا تسقف لغلبانها ولا حدود تلجمها، والزمن منحاز من دون شرط الى اعادة نظر في كل الارث المجتمعي والعموميات الثقافية السائدة على نحو شبه طقوسي على البشر والحجر. والجميع يحلم في مدينة تخطط للقفز من عاصمة لبنانية الى عاصمة لبنانية عربية ومن ثم عربية عالمية، وفي افق عينها نموذجان تريد دمجهما في حال ثقافية على مستوى طموح شباب لا رادع يومئذ لرغباته، نموذج القاهرة العربية ونموذج باريس العالمية.

وتوالت الصراعات، لأن بيروت الستينات والسبعينات، اي بيروت المركزة على جمر في الجسد والمكهربة بنهم في الضمير، كانت مدينة مملوءة بالحذر والقلق، ثم بالاسئلة، وكانت تلك تقود دوما الى القيام بتجارب تجعل من اي مبادرة، لمجرد حصولها، امرا عتيقا يفترض تجاوزه الى ما هو اكثر اختمارا منه.

وهنا وهناك كانت جانين ربيز، اما جزئيا حينا وإما بكل حضورها احيانا. فيما كانت تدفع بمنبر ابو دبس الى واجهة المسرح في المدينة، كانت توجه دعوة الى المسرحي البولوني العالمي جيرزي غروتفسكي للمجيء الى لبنان لعرض احدى مسرحياته مع محاضرة في "دار الفن والادب". وفي مكان ما كانت تريد لبيروت وجها عالميا انما من دون خروج على عروبة لم تكن تقبل بتاتاً اي مناقشة معارض في واقع هذا الانتماء.

وبيروت الستينات/السبعينات عرفت اكثر من عنوان لمعارك حلمت باحداث تبدل اساسي في المفاهيم القائمة من سياسية وثقافية واجتماعية. ومنها، العودة الى الجذور وابعاد الصدام بين الشرق والغرب. وحقيقة المواجهة بين اليسار واليمين. والتيار التجريبي والتيار الواقعي. والاستعانة بالمحكية عوض الفصحى في العروض المسرحية.

وقصيدة النثر والانظمة الشعرية السلفية، ومجلة "شعر" من الركائز الاصلية الاولى. بيروت يومها، ومدى ربع قرن، وفي عنف ينمو على شغب اختباري يريد عالما لبنانيا عشرينيا وعالما عربيا من حميم ذاك الزمن الذي رأى نفسه عربيا، اما الى تطور من دون شرط واما الى مراوحة تنتهي الى ركود.

وجانين ربيز في المقدمة، تناور وتحاور، انما تردع وتعقص ان لزم الامر، لكونها كانت كمن يملك حلماً به يكون ومن دونه يغيب.

وهي حاضرة بيننا الى اليوم.

نزيه خاطر

(*) دعت مؤسسة "صادر للفن والثقافة" الى لقاء ذكرى حول جانين ربيز ودورها الرائد في اطلاق ورشة عمل ثقافية ناشطة في لبنان الستينات، الساعة السابعة مساء اليوم الاربعاء في مركز المؤسسة، سد البوشرية، شارع الكهرباء، سنتر ريمون فياض، والمشاركون في اللقاء، المام كلاب البساط، عارف الريس، واثق اديب ورياض فاخوري.